مقدمة

١ — الموضوع :

الشعر الجاهلى هو الأصل الذى انبثق منه الشعر العربى فى سائر العصور ، وهو الذى أرسى تقاليد هذا الشعر ، وثبت قوانين القصيدة ، وصاغ المعجم الشعرى العربى عامة . فى هذا الشعر وفرة من القيم الفنية الأصيلة لم يحظ بها كثير من الشعر العربى بعده ، ففيه من خصب الشعور ودقة الحس ، وصدق الفن ، وصفاء التعبير ، وأصالة الطبع ، وقوة الحياة ، ما يجعله أدق تعبير عن نفس العربى ، وأصدق مصدر لدراسة حياته وحياة مجتمعه .

وإن المتأمل فى هذا الشعر يلاحظ بوضوح مدى الدور الذى لعبه فى تاريخ الثقافة الإسلامية والعربية عامة ، وفى علوم اللغة والأدب خاصة ، منذ ذلك الزمن البعيد ، الذى عاش فيه العرب فى حدود جزيرتهم وأطرافها ، لا يتجاوزونها إلا لماماً ، إلى العصور التى انتشروا فيها فى الأرض حاملين أضواء الإسلام ، الذى رفعوا مشاعله فى مختلف البقاع ، وتقاليد العروبة التى ربوا فى ظلالها ، والتى ورثوها عن أسلافهم الأمجاد ، فما من عصر من عصور الثقافة العربية الإسلامية ، التى عاشت فيها الأمة العربية إلا وقد برزت العناية فيه بالشعر الجاهلى بروزاً واضحاً ، على الرغم من كل الأحداث التى كانت تتعرض لها هذه الأمة ، فتفرق صفوفها ، وتعبث بوحدتها ، وتعود بها القهقرى فى ميادين العلم والمعرفة ، وإن لم تستطع تلك الأحداث أو الخطوب أن تغشى على هذا التراث الأدبى التليد ، ولا أن تنسى العرب تعهد هذا الأدب بالرواية والمدارسة ، لأنهم وجدوا هذا الأدب ركناً من أركان حضارتهم الفنية ، وقيمهم الإنسانية .

حرص الرواة منذ فجر التاريخ الأدبى على رواية هذا الشعر جيلا بعد جيل ، وحرص العلماء من بعدهم — حين دعت الحاجة العلمية والثقافية —

على جمعه وتدوينه ، ثم على توثيقه وتحقيقه ، وشرحه وتحليله ، وتصنيفه وتبويبه .. ولم يدخروا فى ذلك جهداً ، بل بذلوا من أجله كل ما يملكون من طاقات .. فقد جعل هذا الشعر معياراً للفصاحة ، تفسر به ألفاظ القرآن والحديث ، وجعلته طائفة من الشعراء والعلماء مدرسة فنية ، تأخذ عن شعرائها وترسم مذاهبهم لا فى الألفاظ وحدها ، بل فى المعانى والأخيلة ، والمطالع والمقاطع ، ونحو ذلك . كما جعلته طائفة أخرى نموذجاً يحتذى ، ثم مرجعاً تلتمس فيه الشواهد على صحة ألفاظ اللغة . وكان من أثر حركة جمع الشعر الجاهلى وروايته وتدوينه ، أن وجد العلماء حاجتهم من الأشعار التى يستشهد بها فى التفسير القرآنى ، وشرح الأحاديث وفى النحو واللغة والبلاغة والنقد .. فعكفوا على دراستها وتذليلها ، لتقريبها من الأذهان خصوصاً بعد دخول الأجناس الأخرى فى الإسلام .

وعلى مر العصور شغل كثير من العلماء على اختلاف تخصصاتهم واتجاهاتهم بشرح هذا الشعر ، وتنوعت طرائقهم فى التصنيف والتأليف ، والشرح والتحليل ، كما تباينت مناهجهم نتيجة لاختلاف عصورهم وثقافتهم ، ونتيجة للبيئات العلمية المتعددة ، التى عاشوا فيها . ولقد كان لهذه الشروح العلمية والأدبية أكبر الأثر فى فهمه وتذوقه ، وسعة انتشاره ، كما كان لها أعظم الأثر فى توصيله إلى أذهان الناس ، وفى إبراز قيمه ومثله العليا ، حيث كان لكل شارح مفهومه لهذا الشعر ، وتذوقه لمعناه ، واجتهاده فى تفسير غامضه ، وفقاً لمنحاه العلمى ، وظروف عصره .

ومن هنا كانت دراسة هذه الشروح .. على اختلاف مناهجها ، على جانب كبير من الأهمية ، لمن يريد دراسة هذا الشعر .

فى ضوء هذه الأمور جميعاً ، كان اختيارنا لـ « شروح الشعر الجاهلى .. مناهجها واتجاهاتها » لتكون موضوعاً لدراستنا فى هذا البحث ، لنتعرف على هذه الشروح .. ومناهج الشراح .

وترجع أهمية هذا البحث إلى أنه يتتبع ظاهرة الشروح — على الشعر الجاهلى — منذ نشأتها ونموها وتطورها حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وهى ظاهرة لم يتناولها باحث من قبل بالدراسة التحليلية الشاملة لتوضيح مضمونها .

كما ترجع أهميته إلى أنه يتتبع مناهج الشراح فى تناول هذه الشروح ، ووسائلهم العلمية فى ذلك .

ولقد حددنا هذه الفترة الزمنية ، التى ندرس فى نطاقها الشروح بالقرون الخمسة الأولى .. وقد يكون هذا التحديد مدعاة للتساؤل .

فلماذا حددت بحثى بهذه الفترة بالذات ؟.. ولماذا لم أتبع التقسيم المتعارف عليه فى كتب الأدب ، فأجعل حدود البحث بالعصر العباسى الثانى ، أو حتى عصر السلجوقيين ؟

الواقع أن الجواب عن هذا السؤال — فى رأيى — اعتبارات عدة أهمها أن هذا التحديد كان بناءاً على أن هذه الفترة هى التى شهدت مراحل النشأة والتطور وقمة الازدهار ، ثم التوقف عند مرحلة الجمود. هذه واحدة .

وواحدة أخرى .. أن تقسيم عصور الأدب بحسب التاريخ السياسى ، فيه افتئات على تطور شروح الشعر الجاهلى .. وعلى طبيعة هذا التطور ، لأنه يرتبط بالأحداث السياسية إرتباطاً كاملا ، لذلك فإن الباحثين الذين ساروا فى دراستهم على نهج هذه التقسيمات المتعارف عليها ، كانت نتائجهم — فى الغالب — خاضعة لحكم هذا التضييق السياسى .

ولعل أول من خرج على مثل هذه التقسيمات السياسية « جب » ثم تبعه « بلاشير » حيث يقول : « إننا لا نحتاج إلى إمعان النظر والتفكير لكى ندرك أن مثل هذا التقسيم يقوم على خبط عشواء ، لأنه لا يستوفى الاعتبارات الأدبية بل يعتمد على ثورات السلالات الحاكمة ، أو على أحداث ذات قيمة كبرى فى تاريخ الإسلام السياسى : لكن صلتها بالأدب ليست لازمة ولا حقيقية .

فبروكلمان – ومن تبعه – طبقوا التقسيمات التى وضعها المؤرخون ، وهى عرضة للانتقاد فى التاريخ أيضاً ، ومن الباحثين من يخطئها ، ونسوا أن الأحداث الأدبية والسياسية لا تلتقى دائماً ، وأن أزمان حدوثها لا يشترط فيها الاتفاق ، فالرسالة النبوية مثلا .. أحدثت انقلاباً عظيماً فى حياة العرب السياسية والدينية والاجتماعية ، ولكنها لم تدفع الشعراء المخضرمين إلى الخروج على مذاهبهم التقليدية فى الشعر – فى حين أن استيلاء الأمويين على الحكم ، والمكانة التى اكتسبتها سورية والعراق فى العالم العربى آنذاك ، وتطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، خلق ظروفاً جديدة أدت إلى تطور محسوس فى عالم الأدب .. »(١) .

أضف إلى ذلك – أن مثل هذا الموقف اقتنع به ، وانتهجه مجموعة من العلماء والباحثين ، الذين سبقونا إلى مثل هذه الدراسات الأدبية .

فأستاذنا الدكتور يوسف خليف ، حين درس حياة الشعر فى الكوفة ، أملت عليه ظروف البحث وطبيعته ، أن يحدد الفترة الزمنية التى يقف عندها بالقرن الثانى الهجرى ، ولم يلتزم بأى تحديد سياسى ، والدكتور محمد مصطفى هدارة ، حين درس إتجاهات الشعر ، حدد أيضاً الفترة الزمنية التى وقف عندها بالقرن الثانى الهجرى ، وكذلك الدكتور نجيب البهبيتى حين درس تاريخ الشعر العربى ، كانت نهاية الفترة التى انتهى عندها هى القرن الثالث .

وفى اعتقادى .. أن تحديد الفترة الزمنية حسب الواقع الثقافى والعلمى ، أكثر واقعية وموضوعية من الإلتزام بالعصور السياسية ، وإن كنا لا نغفل تأثيرها .

---

(١) ترجمة النص لعلى الزبيدى فى مقالته « الانتحال والعبث فى الأدب العباسى » ، مجلة كلية الآداب ، بغداد ، العدد الثانى ، حزيران ١٩٥٧ .

٢ – المنهج :

هدفنا الأساسى من هذا البحث – كما ذكرنا – دراسة « شروح الشعر الجاهلى حتى القرن الخامس » فى إطار من المناهج العلمية المتباينة التى أحاطت بها . ذلك أن هذه الشروح لم تظهر فى صورة واضحة متكاملة إلا فى إطار منهج علمى منظم ، وضعه وخطط له عالم أو أكثر . أما مرحلة ما قبل المناهج فقد كانت هذه الشروح عبارة عن .. إشارات توضيحية ، شرح لفظه ، تعريف بعلم ، تحديد مناسبة تاريخية ، ذكر قائل بيت .. إلى غير ذلك من الإشارات المقتضبة المحددة ، ولكن عندما أخذت الحياة تدب فى الدراسات اللغوية ، وسارت هذه الدراسات فى طريق النضج والاكتمال ، واتسعت الرواية العلمية ، واستقرت دعائمها وانبثقت فكرة تصنيف الشروح لدى العلماء ، كانت لهم مناهج علمية اختطوها ، وساروا على هداها.. وضح فى هذه المناهج : منحاهم العلمى ، ومحصولهم الثقافى ، ومفهومهم للنص ، وطريقتهم فى التصرف والتحليل .. ووضح أيضاً أثر البيئة والثقافة وطبيعة العصر ووضح كذلك المستوى العلمى للمتلقين .. من السامعين والقارئين .

فى ضوء ذلك كله تحددت المناهج العلمية التى انتهجها العلماء كل حسب عصره وبيئته وثقافته . وفى ضوء ذلك تحدد منهجنا فى الدراسة ، فقد رأينا من الضرورى ونحن بصدد دراسة هذه الشروح ، أن نربط بينهما وبين المناهج العلمية التى انتهجها الشراح وظهرت فى مصنفاتهم .

لقد كانت سلامة منهجنا تحتم علينا – ما دام هذا هدفنا – أن نتتبع أولا ظاهرة الشروح لنتعرف كيف خرجت إلى الوجود ، وكيف نشأت ، وما عوامل نموها وتطورها ، وما المؤثرات التى وضحت فيها ، ثم أن هذه الظاهرة ما كانت لتنشأ إلا نتيجة لحاجات ثقافية ، وعلمية ملحة لدى القوم على مر العصور ، ونتيجة لعوامل فعالة مؤثرة دعت الشراح إلى التصدى لشرح الشعر وتحليله ، وتجلية غامضه . لذلك كان علينا ونحن بصدد دراسة ظاهرة الشروح ، أن نمهد لها بدراسة الحاجة الثقافية هذه ، ونلقى عليها مزيداً

من الضوء ، حتى لا تظهر الشروح ، وكأنها نشأت من فراغ ، أو بلا دوافع أو حاجات ثقافية .

ثم — إن هذه الشروح نشأت فى بيئة ثقافية ، وظهرت مواكبة للحركة العلمية النشطة التى أشرقت فى الأمصار الإسلامية — خاصة فى العراق — وتأثرت بالتيارات العلمية ، والخلافات الإقليمية والمذهبية الناتجة فى العصر ، لذلك كان واجباً علينا أن ندرس هذه البيئة الثقافية التى أنتجت الشروح ، وأن نتتبع هذه الحركات العلمية — خاصة الدراسات اللغوية ، التى سارت موازية لحركة الشروح ، لنتعرف على كل ما يتصل بها .

كل ذلك فرض علينا أن نقسم هذا البحث إلى بابين ، وأن نجعل كل ما يتصل بالشروح : بيئتها ، والحاجة الثقافية التى دعت إليها ، ثم نشأتها وتطورها .. فى الباب الأول ، فكان دراسة تاريخية ، وقفنا عندها لنتعرف على هذه البيئة التى احتضنت الشروح ، ونتفهم ما كان يتدفع فيها من تيارات متعددة ، وما كان يتجاذبها من اتجاهات مختلفة . وكان من رأينا — أن نبدأ بهذا الجانب الهام ، لنستطيع فى ضوئه أن نتبين أثر هذه البيئة بتياراتها فى حركة الشروح ، فمضينا نتتبع كل ما يتصل باللغة منذ جمعها وتدوينها ، ثم تقعيد نحوها ، وتقنين صرفها ، ثم رواية الشعر والأخبار وأيام العرب ، ودرسنا أهم ما يتصل بهذه المجالات ، وكلها أمور تتصل بجوهر الشرح ، وخطوطه الرئيسية ، وكان هذا هو مضمون الفصل الأول .

ومضينا بعد ذلك ندرس الحاجة الثقافية التى دعت إلى شرح الشعر ، دراسة تعليلية ، لم نقف فيها طويلا عند الأحداث التاريخية أو السياسية ، وإنما ألمحنا إليها ، وإلى مواضعها فى المصادر ، لنتفرغ لتعليل هذه الحاجة الثقافية — من الوجهة العلمية — وتفسيرها ، وربط أسبابها بمسبباتها ، لعلنا نستطيع من وراء ذلك أن نصل إلى استجلاء هذه الحاجة ، والدوافع إليها ، وكان هذا هو موضوع الفصل الثانى .

وإذ انتهينا من دراسة البيئة الثقافية .. والحاجة الثقافية ، مضينا إلى موضوع الفصل الثالث من هذا الباب — حيث تتبعنا ظاهرة الشروح نفسها منذ العصر الجاهلى ، منذ أن كان الشاعر الجاهلى يفسر شعره ، ويحكى العوامل المهيجة لقريحته ، الدافعة به إلى النظم ، ومنذ أن تولى هذا الأمر بعده رواته من أبنائه وأبناء عشيرته . ثم تتبعنا تنقل هذه الظاهرة التفسيرية بين الرواة والأعراب ، حتى انتقالها إلى العلماء الرواة ، ثم اقتفينا أثرها بين أجيال الشراح ، وتتبعنا الإضافات الدقيقة التى كانت تطرأ على هذه الشروح من جيل إلى جيل ، حتى عبرنا مع هذه الشروح القرون الخمسة .

وإذ انتهينا من هذه الدراسة التاريخية فى الباب الأول ، مضينا بعد ذلك إلى الدراسة الفنية فى الباب الثانى .. إلى دراسة المناهج العلمية ، التى احتوت هذه الشروح ، وكستها بأزياء مختلفة ، تتلون وتتبدل وفق شخصية الشارح وعصره ومستواه الثقافى .. وبطبيعة الحال ، كانت هذه الدراسة تحليلية توضح الصورة التى ظهرت عليها الشروح ، ووصلت فيها إلى أيدينا دواوين مصنفة مصنعة ، مشروحة محللة .

كان من الطبيعى — وفى البداية — أن أحدد مفهومى لهذه المناهج العلمية ، وأن أوضح تصورى لها ، ولمشتملاتها وعناصرها .. كما أوضح صورتها الأولية كيف تطورت مظهراً وجوهراً ، وأن أحدد العوامل التى أثرت فى شكلها ومضمونها ، كما كان من الضرورى أن أفرق بين منهج وآخر ، وأحدد عناصره التفسيرية .. لذلك كانت موضوعية البحث تحتم على أن أحدد هذه المناهج كماً ، ثم أفرق بينها كيفاً ، أن أتتبع هذه المناهج العلمية ، منذ نشأتها وتطورها ، كما أحدد أبرز الشخصيات الممثلة لها .

ولقد وضح لى من دراستى لخط سير المناهج العلمية — فى هذه الفترة التى حددتها فى بحثى — أنها لا تتعدى ثلاثة مناهج علمية .. كل منها يؤدى إلى ما بعده ، ويوصل إليه ، ولا انفصام بين منهج وآخر ، إنما هى حلقات متصلة متكاملة ، تكمل سلسلة الشروح . . فكان هذا الباب الفنى التحليلى

ثلاثة فصول أيضاً .. لكل منهج فصل مستقل ، حددت فى صدره طبيعة المنهج وصورته ، ثم تتبعت عناصره ، كما ظهرت فى شروح ممثله .

ولعل هذا المنهج العلمى يضيف إضافة جديدة ، توضح — لماذا لم ندرس هذه الشروح .. ومناهجها ، على أساس من تقسيم الفترة إلى عصور سياسية ، وإنما درسناها على أساس من صلتها بجوانب الحياة الثقافية والأدبية ، ومقدرات الحياة العلمية .

٣ — المصادر :

والمصادر العلمية التى اعتمدنا عليها فى هذه الدراسة تنقسم بطبيعة المنهج إلى مجموعتين .. مصادر أساسية ، ومصادر مساعدة . أما المصادر الأساسية ، فهى شروح الشعر الجاهلى نفسها ، جميع الشروح التى وضعت على الشعر الجاهلى ووصلت إلى أيدينا مطبوعة أو مخطوطة ، سواء كانت هذه الشروح دواوين فردية ، أو دواوين قبائل ، أو مجموعات شعرية ، أو اختيارات .. على اختلاف مصنفيها وشارحيها ، واختلاف عصورهم ومناهجهم .

وأما المصادر المساعدة ، فهى مصادر الدراسة ذاتها ، وهى تضم مجموعة ضخمة من المصادر التاريخية والاجتماعية والعقلية والأدبية واللغوية ، بالإضافة إلى كتب التراجم والأنساب . وأهم المصادر التى اعتمدنا عليها فيما يتصل بالتاريخ تاريخ بغداد ، وتاريخ الإسلام للذهبى ، والكامل لابن الأثير .

وأهم المصادر التى اعتمدنا عليها فى النواحى الاجتماعية كتب الجاحظ ، والأنساب للسمعانى ، ومقدمة ابن خلدون . وأهم المصادر اللغوية التى انتفعنا بها فى دراستنا : كتب ابن السكيت اللغوية ، وكتب الأضداد ، ومزهر السيوطى ، وفصيح ثعلب ، إلى جانب معاجم اللغة العربية على اختلاف ألوانها ومصنفيها .

أما كتب التراجم ، فهى كثيرة — فى مقدمتها معجم الأدباء لياقوت ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ونزهة الألباء ، وأنباه الرواه ، وشذرات الذهب وغيرهم .

أما المصادر الأدبية ، فهى كثيرة متنوعة ، بعضها يتصل بحياة الشعراء ، مثل طبقات ابن سلام ، وطبقات ابن المعتز ، وشعراء ابن قتيبة ، وأغانى الأصفهانى ، وخزانة البغدادى ..

وبعضها يتصل بدراسة الشعر ونقده ، مثل شرح ما يقع فيه التصحيف للعسكرى ، والتنبيه على حدوثه لحمزة الأصفهانى ، ومعانى ابن قتيبة ، ونهاية الأرب .. ثم موشح المرزبانى ، وعمدة ابن رشيق ، وعيار الشعر لابن طباطبا ، والصناعتين .. إلى غير ذلك من المصادر .

وإلى جانب هذه المصادر العربية القديمة ، رجعنا إلى مجموعة كبيرة من دراسات المستشرقين وهى وإن لم تفدنا فائدة تذكر فى الدراسة الفنية ، كانت ذات فائدة كبيرة فى دراسة الحياة العلمية والأدبية ، وضحت لنا جوانب كثيرة منها ، وفسرت لنا كثيراً من ظواهرها ، وأطلعتنا على أساليب مختلفة من البحث العلمى الدقيق ، لقد أفدنا كثيراً من دراسات فك وبلاشير وجولد تسيهر فى الحياة اللغوية ، والحياة العقلية ، ودراسات فلهوزن التاريخية عن الدولة العربية ، ودراسات بروكلمان فى معرفة التيارات الفكرية ، ودراسة الشخصيات ، وتحديد المؤلفات والمصنفات ، ودراسات كارا دى فو ، وأرنولد وغيرها من الأبحاث التى تضمنتها دائرة المعارف الإسلامية ، حيث كانت ذات قيمة لا تنكر فى تيسير السبيل وتذليله .

وإلى جانب هذه الدراسات والبحوث الاستشراقية ، رجعنا إلى مجموعة أخرى من الدراسات والبحوث العربية المعاصرة ، التى قام بها أساتذة لنا ، وباحثون مقتدرون سبقونا إلى ميدان البحث والعلم .. ونعترف بأننا انتفعنا إنتفاعاً كبيراً بدراسات الأستاذ الدكتور طه حسين عن الأدب الجاهلى ، ودراسات الأستاذ أحمد أمين عن الحياة الاجتماعية ، والحياة العقابة فى فجر الإسلام وضحاه ، ودراسات الأستاذ الدكتور شوقى ضيف عن العصور الثقافية والأدبية ، وفنون الشعر ومذاهبها ، ودراسات الأستاذ الدكتور يوسف خليف عن الشعراء الجاهليين ، وعن حياة الشعر فى الكوفة وغيرها

من الأمصار ، ودراسة الدكتور ناصر الدين الأسد عن مصادر الشعر الجاهلي.

كما رجعنا إلى كثير من الرسائل الجامعية المخطوطة ، التي أعدها زملاء لنا وتتصل بموضوع بحثنا ، وهي دراسات وأبحاث قيمة ، أضاءت لنا الطريق ، ويسرت لنا كثيراً من جوانب هذا الموضوع ، وبالطبع لا يتسع المجال لذكر كل المصادر ، بيد أن وراء ما ذكرناه مصادر ومراجع كثيرة ، لم نعرض لها هنا اكتفاء بإثباتها في هوامش البحث ، وإدراجها في الثبت الأخير .

وبعد ، فلسنا ندعي أننا قلنا الكلمة الأخيرة في موضوعنا ، أو أننا أحطنا علماً بكل جوانبه ، فتلك دعوى لا تتفق مع العلم الذي نجله ونخلص له ، وإنما حسبنا أن نذكر أن هذا البحث هو الخطوة الأولى في سبيل دراسة هذا الموضوع ، وأرجو أن تتلوها خطوات تكمل ما فيه من نقص ، وتقوم ما قد يكون فيه من عوج ، وحسب هذا البحث أنه شق الطريق ، وألقى فيها من المعالم ما يهدي السالكين ، وحسبي منه أنني أخلصت النية وبذلت الجهد ...

بقيت كلمة .. أقولها مخلصاً صادقاً ..

لقد كان لأستاذي الجليل الدكتور يوسف خليف أبلغ الأثر في نفسي ، وأعظمه في إخراج هذا البحث . كان لدفعاته القوية ، ولتوجيهاته السديدة ، ونصائحه الغالية أكبر العون على متابعة البحث .. فله مني أعظم الشكر والتقدير على ما حباني به من رعاية طيبة مباركة شدت أزري ، وقوت عزمي ..

أدعو الله مخلصاً أن يحفظه ذُخْراً وعوناً لطلاب علمه وأن يمده بالصحة والعافية ليكون نبراساً وهادياً ومرشداً .

إنه السميع المجيب ..

د. أحمد جمال العمري